سلسلة
معاركنا الإسلامية ١
للفتيان

مقتل كعب بن الأشرف

تأليف الدكتور
إبراهيم عوض

دار الفتح

مقتل
كعب بن الأشرف

تأليف الدكتور
إبراهيم عوض

دار الفتح

طبعة دار الفتح الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الفتح : حياة آباد - بيشاور - باكستان

الإهداء

إلى يُمْنَى وعلاء الدين إبراهيم عوض، وآلاء قاسم عبود، الذين قرأوا هذه القصة قبل طبعها وشجّعني رأيهم الطيب على نشرها.

إلى الأولاد والبنات المسلمين في كل مكان، أهدي هذه القصة.

ملاحظة :

«الأقوال الواردة على لسان شخصيات القصة حُكيت بالمعنى لتناسب مدارك الأولاد والبنات، الذين كتبت القصة من أجلهم. لذا لزم التنبيه».

مقتل كعب بن الأشرف

كـــان هنـاك رجــل من قبيلة طيء اسمـــه كعب بن الأشـرف. وكان أبـوه عربيـاً، أمـا أمـه فكانت يهودية من بني النضير. وقد أُشْرِب في قلبه كراهية النبي ﷺ وكراهية دينه. أشربته ذلك أمـه وأخـواله اليهـود، الذين كـانوا مثـل باقي اليهـود يحسدون النبي ﷺ على نبوته لأنهم كانوا يريدونها أن تظل في بني إسرائيل لا تخرج عنهم إلى بني إسماعيل أبـداً، جاهلين أن النبـوة فضل من الله يهبه لمن يشاء، وأنه سبحانـه أعلم حيث يجعل رسالته.

ثم كانت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، تلك الغـزوة التي انتصر الـرسول عليـه الصلاة

والسلام فيها هو والمسلمون، ونكلوا بالكفار تنكيلاً شديداً، وقتلوا منهم سبعين من أشرافهم وكبار مقاتليهم وَذَوِي الشهرة فيهم، رغم تفوق المشركين على المسلمين بنسبة ثلاثة إلى واحد، وثقتهم قبل المعركة أنهم سيقضون على المسلمين قضاءً مُبْرَماً لا تقوم لهم قائمة بعده.

وفي آخر النهار من ذلك اليوم المجيد الذي نصر الله سبحانه فيه جنوده على جنود إبليس أرسل النبي ﷺ اثنين من المسلمين إلى المدينة لحمل أخبار الانتصار العظيم إلى أهلها، وإدخال البهجة والسعادة على قلوبهم، وتهيئتهم لاستقبال الجيش الإسلامي العائد بما يليق به وبالفوز الرائع الذي حققه بفضل الله على قوى الكفر والبَغْي والعدوان.

ودخل البشيران المدينة، أحدهما من الشرق والآخر من الغرب، وهما يصيحان بأنباء النصر

المؤزَّر، ويذكران أسماء قتلى المشركين، وكانت أسماءً رنانة ذات رهبة، لشرف أصحابها ومكانتهم العالية بين العرب أجمعين. وخرج أهل المدينة على هذه البشارة وهم يرفعون أصواتهم بحمد الله وشكره، ويظهرون الفرحة والسعادة، ويهزجون بأناشيد النصر والفخار.

وكان كعب بن الأشرف في جماعة من أصحابه حين بلغتهم أخبار الهزيمة النَّكْراء التي وقعت بالمشركين ومقتل صناديدهم وأشرافهم، فأخذ يضرب كفّاً بكف وقد اسودّ وجهه وبانت عليه علامات الغيظ والحقد قائلاً:

– يا للمصيبة والعار! أمعقول هذا؟ هل حقاً قُتل أُمَيَّة بن خَلَف؟ هل حقاً قُتل الحَكَمُ بن هشام؟ هل حقاً قُتل عُتْبَة بن أبي ربيعة وأخوه شَيْبَة؟ هل حقاً قُتل زَمْعة بن الأَسْوَدِ؟ إنني لا أصدق ما أسمع. وهل قتل كذلك مُنَبِّه بن الحجاج

وقتل أخوه نُبَيْه أيضاً؟ إن هؤلاء أشراف العرب وسادتهم، فهل يمكن أن يكون محمد قد قتلهم؟ ألَا إن ذلك أمرٌ يَفُوق الخيال.

فأخذ الناس يؤكدون له صدق الخبر، فازداد وجهه سواداً، وأخذت ثعابين البغضاء لرسول الله ﷺ ولدينه تأكل قلبه بأنيابها السامة، وهو يتلوى من الألم ويتمنى لو أنه مات ولم يسمع ما سمع. ثم انطلق لسانه وقد أصابه الذهول وشردت عيناه إلى بعيد فلم يعد يُحِسُّ بمن حوله، وكأنه يخاطب نفسه:

- والله إن كان محمد قد قتل هؤلاء الرجال فخير لنا أن نموت ونُدْفَن في باطن الأرض، إذ ما معنى الحياة بعدهم؟.

ثم قام منصرفاً إلى داره دون استئذان أو تحية، محطم النفس خائر القوى، يريد أن يلقي

بنفسه على فراشه من هول الكابوس الذي يخنقه ويضغط على قلبه بلا رحمة.

* * *

مرت أيام وكعب بن الأشرف يحاول استجماع شتات نفسه. ثم أخذ يفكر فيما عسى أن يصنع للتآمر على النبي ﷺ وأصحابه وإفساد ذلك النصر الذي انتصروه. وبعد أن هدأت أعصابه قليلاً خطر له أن ينطلق إلى مكة لمقابلة من بقي من رؤوس المشركين والتباحث معهم فيما ينبغي عمله لضرب محمد والقضاء على دينه.

وفعلاً شرع يتجهز للسَّفر، فأعدَّ ناقته وأخذ معه ما يلزمه من مُؤَنٍ وزاد لهذه الرحلة الطويلة، ولبس درعه وتَوَشَّح سيفه، ثم انطلق قاصداً مكة في ستر من الليل دون أن يُعلم أحداً بوجهته، خوفاً من أن يتعقبه المسلمون فيقتلوه، بعد أن أصبحت كراهيته لهم ولرسولهم ورغبته في

تحطيمهم معروفة للقاصي والداني، وأضحى بذلك طَرَفاً في الحرب ضدّهم.

سلك كعب بن الأشرف في رحلته إلى مكة طرقاً غير مألوفة. وكان يتلفت بين الحين والحين خلفه، فقد كان خوفه وقلقه يخيِّلان له أنه يسمع وقع حوافر جياد تتعقب أَثَره، فإذا لم يجد شيئاً اطمأن قلبه قليلاً، غير أن الخوف والقلق سرعان ما يهجمان عليه كَرَّةً أخرى. وهكذا حتى وصل إلى مكة.

* * *

وكان لعدو الله أصحاب ومعارف كثيرون في مكة، ومنهم المُطَّلب بن أبي وَدَاعة السَّهمي، فَيَمَّم داره. وكان الظلام قد حلَّ، والطرق تكاد تخلو من الناس. وكان كعب يحس بجو الحزن المخيِّم على البلدة وأهلها من جَرَّاء الهزيمة التي

نزلت عليهم كالصاعقة وما جرجرت في أذيالها من يُتْم وثُكْل وترمُّل.

ولما بلغ دار المطلب أوقف ناقته وترجَّل عنها وأناخها، ثم طرق الباب، فجاءه صوت نِسْوِيّ متلكئاً خافتاً:

ـ من الطارق؟.

ـ أنا كعب بن الأشرف.

فسرعان ما فُتح الباب، وظهرت فيه زوجة المُطَّلب عاتكة بنت أُسَيْد العَبْشَمِيَّة، وإذا بالصوت المتلكىء الخافت تدب فيه الحرارة وصاحبته ترحب بكعب وتدعوه إلى الدخول، وهي تسأله عن حاله ورحلته وأهله والمدينة ومحمد والمسلمين، ولا تترك له فرصة يلتقط فيها أنفاسه. ثم استأذنته في الخروج لاستدعاء زوجها، الذي لم يكن بالبيت حينذاك. وانصرفت بعد أن قدمت

لـه بعض اللبن والتمر يستـرد بهما بعض قـواه.

* * *

أتى كعب على ما أمامه من تمر، وشرب كل ما في القَعْب من لبن، لم يترك منه قطرة، فقد كان شديد الجوع والعطش بعد الـرحلة المضنية تحت وهج الشمس في قلب الرمال والغبار. وكان لا يزال يزدرد بقايا آخر تمرة حين سمـع صريـر الباب وصوت المطلب وزوجته ومعهم رجال ونساء آخرون.

وبعـد التحيات والتـرحيبات أخـذت الأسئلة تنهمل عليه كالسيل الـطامي، وكلها عن محمـد وأصحابه وماذا يفعلون وماذا يقولون وماذا ينوون، وهــو يجيب على هـذا المـوج المتـلاحق من الاستفســارات نــافثـاً الـغيظ والـحقـد عـلى رسـول الله ﷺ وديـنـه، ومحــرِّضـاً لهم على ألا يسكتــوا عن الأخـذ بثـأر من قُتـل من آبــائهم

وأزواجهم وأبنائهم، قائلاً لهم وهو يلهث لُهاث الكراهية وقد أطبق أسنانه، فكانت الكلمات تخرج من بينها كأنها زَفِيرُ نار تتلظى أو فَحِيحُ أفعى هائجة:

- كيف يهنأ لكم بال وقد وقع بكم ماوقع؟ إنني والله ما استقر لي قرار منذ أن سمعت نبأ الكارثة، وظللت أتقلب على فراشٍ من الأشواك الصُّلْبة السامَّة إلى أن اتخذت قراري بالمجيء إليكم. أَيُعْقَلُ أن عُتْبة وشَيْبة قد قُتِلا؟ إنني لا أصدق ذلك. ولا أستطيع أن أتصور أنني لن أسعد أبداً بمَرْأى الحَكَم بن هشام، هذا الشريف الهُمَام الذي كان زينة الدنيا وفَخْرَهَا، أو لن أسمع صوت أحبابي منبّه ونُبَيْه وزَمْعة بعد اليوم إلى آخر الدهر. يا بؤسك يا مكة وقد أُطيح برقاب سادتك وأبطالك الصناديد، وأهلك ساكتون على هذه المذلة

راضون بهذا العار، وكأن شيئاً لم يحدث!.

ثم شرع يُنْشِدُ أشعاره في رثاء قتلى مكة لا يقطعها إلا نشيج بكائه المفتعَل، وقد انهلّت دموعه على خديه، فهاجت المشاعر وأخذت النسوة يولولن ويلطمن خدودهن وصدورهن، على حين كان الرجال يهددون ويتوعدون، ويقسمون أنهم لن يغمض لهم جفن ولن يسوغ في حلوقهم طعام حتى ينتقموا لقتلاهم ويفعلوا بمحمد وصحبه ما فعلوه بهم بل أشدّ.

وسرعان ما جذبت ولولات النساء وصيحات الرجال أصحاب البيوت المجاورة، فجاءوا يستطلعون جَلِيَّة الخبر، ولمَّا علموا أنه كعب أخذوا يتنازعون ضيافته. ثم انتهى الأمر بالاتفاق على أن يَنْزِل ضيفاً على كل منهم ليلة. وهكذا توالت الاجتماعات. وفي كل اجتماع كان كعب يُلْقِي على نار الانتقام حطباً جديداً، ويعيد إنشاد

أشعاره التحريضية، فترتفع ولولات النساء، وتنهال أكفهن على خدودهن لطماً، ويزفر الرجال باللهيب وقد برقت عيونهم وتشنجت ملامحهم.

وفي آخر المدة استأذن كعب وركب ناقته عائداً إلى بلاده، بعد أن اطمأن إلى أن النار التي تركها خلفه في صدور الرجال وقلوب النساء لن تنطفىء حتى يتم الثأر.

* * *

عاد كعب بن الأشرف إلى بلاده كما خرج ليلاً متخفياً في بُرْد الظلام الدامس، ودخل حصنه يحتمي به من المسلمين، ولم يعد يخرج منه إلّا ومعه فريق من الرجال قد لَبِسوا دروعهم وحملوا سيوفهم.

واستفاض في المدينة نبأ رحلته إلى مكة وتحريضه قريشاً على الثأر، وأشعاره التي كان يُنْشِدها في الدُّور والأندية المكية، يبكي فيها قتلى

المشركين في بدر، ويهجو رسول الله ﷺ ودينه، ويدعو إلى سَحْقِهِ هو وأتباعه.

ولم يكتف ابن الأشرف بذلك، بل أخذ ينظم قصائد غَزَلِيّة في الطاهرات العفيفات من نساء المسلمين، ويقول فيهن ما يؤذي أعراضهن ويسيء إلى بيوتاتهن وأزواجهن، ويُفْحش في ذلك فُحْشاً عظيماً. فَضَجَّ المسلمون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه إهانات هذا اللعين. كل ذلك وابن الأشرف ماضٍ في تآمره، والاتصال بأهل مكة وإرسال أشعاره الفاجرة في حرائر المسلمين، والتحريض على رسول الله ﷺ وعلى دينه، فرأى رسول الله ﷺ أنه لا بد من التخلص من هذا المجرم الذي ناصب الله ورسوله والمسلمين الحرب جهاراً، دون أن تسبق منهم أية إساءة إليه.

قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه ذات يوم:

- «من منكم يستطيع أن يخلِّصنا من ابن الأشرف؟».

فرد محمد بن مَسْلَمة على الفور:

- أنا أقتله يا رسول الله.

فقال له النبي عليه السلام:

- «فافعل إن قدرت على ذلك، بارك الله فيك!».

* * *

بعد أن انصرف محمد بن مسلمة من حضرة رسول الله ﷺ أخذ يفكر فيما وعده به، وخاف ألا يستطيع تحقيق هذا الوعد، إذ أن ابن الأشرف يأوي دائماً إلى حصنه لا يكاد يخرج منه، وإذا خرج كان معه فريق من الرجال عليهم سلاحهم. فساوره الندم على تسرعه في الوعد بقتله، وظن أن رسول الله ﷺ غاضب لا محالة عليه. وشغله هذا الأمر شُغْلاً شديداً لدرجة أنه عاف الطعام

والشراب ولم يعد يصيب منهما إلا أقل القليل.

وبلغ ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام فأرسل يستدعيه. ولما حضر سأله:

- «لم تركت الطعام والشراب يا محمد بن مسلمة؟».

فأجابه منكسراً:

- لقد وعدتك يا رسول الله وعداً، ولا أدري أأستطيع الوفاء به أم لا.

فقال له الرسول يطمئنه ويذهب عنه وحشة نفسه:

- «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها يا ابن مسلمة. وما عليك إلا أن تحاول، فإن نجحت فبها ونعمت، وإلا فإن الله لا يُضيع أجر المجتهدين».

عندئذ ذهب عن محمد بن مسلمة كَدَرُهُ،

وعاد إليه نشاط نفسه، واستأذن رسول الله ﷺ وقد صح عزمه على أن ينفذ وعده بقتل الخائن المجرم بكل سبيل.

* * *

جمع محمد بن مسلمة نفراً من المسلمين الشجعان، وهم عباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، وكذلك سِلْكان بن سلامة، الذي كان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة، وعرض عليهم أن يشتركوا في قتل عدو الله، فوافقوا كلهم في الحال. وكانت خطتهم أن يذهب سلكان بن سلامة أخو كعب في الرضاع إليه لَيَجُسَّ نبضه ويستدرجه إلى خارج الحصن.

* * *

ذهب سلكان بن سلامة إلى حصن ابن الأشرف في ظلام الليل وقد خفتت الأصوات وانقطعت الرِّجْل من الطريق. ولمَّا عرَّف نفسه

وتأكد الحارس من صوته فتح له باب الحصن الضخم، فانبعث في الفضاء في هَدْأة الليل صرير مزعج. وأخذ سلكان طريقه إلى مسكن ابن الأشرف حيث وجده ساهراً مع عروسه وعليه ملابس حريرية براقة يفوح منها عطر نَفَّاذ وهما يتضاحكان.

قال سلكان في نفسه وهو يبتسم لكعب، الذي أخذ يرحب به ويبالغ في ملاطفته:

ـ اضحك ما شئت يا عدو الله، فعمَّا قريب تودِّع الضَّحِك إلى الأبد!.

ثم وجه حديثه إلى كعب مبارِكاً له ولعروسه ومتمنياً لهما زواجاً سعيداً وعمراً مديداً وبنين وحَفَدَةً، وابن الأشرف يقهقه ويتلفت ناحية زوجته في وَلَهٍ وشهوة تارة، ويقدم لسلكان واجب الضيافة تارة. ثم ابتدأ يُنْشده من شعره وقد اتَّكأ على وسادة خلف ظهره ومدّ رجليه نحوه وهو يفتل

شاربه في عُجْبٍ وغرور. وكان سلكان يبدي إعجابه بما يقول مصفقاً مهللاً، ثم أنشده هو أيضاً شعراً من شعره، وكعب يعلق على ما يسمع ضاحكاً. وبعد أن فرغ سلكان من إنشاده قال فجأة وقد علت وجهه سحابة من الهمِّ والخَجَل:

- يا أخي كعباً، لقد جئتك الليلة في حاجة أرجو أن تكتمها عليَّ. وإني لواثق أنك ستقضيها لي، وتجعلها سرّاً بيني وبينك.

فكف كعب عن الضَّحِك والتطلع إلى عروسه، وقال في دهشة وفضول:

- وما ذلك يا أخي؟.

فاقترب منه سلكان كأنه يخشى أن تسمعه الجدران:

- لقد كان قدوم ذلك الرجل الذي اسمه محمد إلى بلادنا شؤماً ونَكْبة علينا، لقد رحبنا به

وعاهدناه على أن ندافع عنه كما ندافع عن أنفسنا وأهلينا، وظننّا أننا سنبلغ به المَجْد وتهابنا العرب. ولكن الذي حدث كان عكس ذلك تماماً، فقد اتحد ضدنا العرب جميعاً، وقطعوا طُرُقَنا حتى افتقرنا ولم نعد نستطيع أن نُطْعِم نساءنا وأولادنا. وإني لأتساءل: أليس لهذا الكَرْب من آخر؟.

ابتسم كعب ابتسامة هي مزيج من الشماتة والرضا عن نفسه قائلاً:

- ألم أقل لكم ذلك يا سلكان من قبل؟ إنني ابن الأشرف، الذي ظنه لا يخيب، لكنكم لم تصدقوني ولم تسمعوا نُصْحي، وسارعتم إلى السير وراء محمد والتعلق بأذيال ثوبه. فذوقوا إذن ثمرة طَيْشكم وعنادكم.

قال سلكان وهو يتصاغر أمامه وَيَتَمَسْكَن:

- إنني أخوك على كل حال وأنت أخي، وليس

يرضيك ما نحن فيه. وقد جئتك آسفاً ونادماً، فلا تزدْني هَمّاً على همّي. ولست وحدي في ذلك، بل معي رجال آخرون شعروا بفداحة خطئهم بعد الذي أصابهم من الجهد والفقر. وقد أرسلوني أعْرِضُ عليك أن تعطينا طعاماً نقيم به أوْدَنا وأوْدَ زوجاتنا وعيالنا الذين يتضورون من الجوع والألم، ونرهن عندك ما تشاء إلى أن نسدد لك الثمن.

فرفع ابن الأشرف حاجباً وخفض حاجباً وهو يتطلع إلى ركن الحجرة حيث كانت عروسه جالسة في أبهى زينتها تسمع صامتة، ثم قال في تُؤَدة وهو يهز رأسه:

– وهو كذلك! سأعطيكم يا سلكان ما تحتاجون إليه . . . على أن ترهنوا عندي أبناءكم.

فانتفض سلكان وهو يمثل دور الغاضب الذي اهين:

- أبناءنا؟ أهذا ما أملاه عليك رباط الأخوة الذي بيننا؟ بئس ما قلت يا كعب! بل بئست الحاجة التي أحوجتني إليك، والقَدَمُ التي حملتني إلى بيتك! إنك بذلك تَفْضَحُنا وتُخْزينا!.

قال ذلك وهو يهمّ بالنهوض، فشده كعب من ذراعه يجلسه، وأخذ يتضاحك قائلاً:

- أتُراك صدَّقْتَ ما قلتُ لك؟ يا أخي، لقد كنت أمزح. إنها دُعابة أردت بها أن أبين لك مدى الجُرْم الذي ارتكبتموه في حق أنفسكم حين عصيتموني وجريتم وراء هذا الرجل الذي طرده قومه فلم يجد بين العرب من هم أطيب منكم قلباً وأشد منكم سذاجة واستسلاماً. اطمئن يا أخي سلكان، فسوف أعطيكم ما تريدون، وترهنونني ما تشاءون.

قال سلكان وقد انفرجت أساريره:

ـ سنرهنك سلاحنا كله، ولا أظن أنك تجد رهناً خيراً من ذلك.

أجاب ابن الأشرف:

ـ وأنا موافق يا سلكان.

وقد تعمد سلكان أن يجعل الرهان سلاحاً حتى إذا جاءه في الليلة التالية هو وأصحابه ومعهم السلاح الذي سيقتلونه به لم يَشُكَّ في الأمر.

* * *

رجع سلكان إلى محمد بن مسلمة وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبي عَبْس بن جبر وأطلعهم على ما دار بينه وبين كعب بن الأشرف والاتفاق الذي انتهيا إليه.

ثم طلب منهم أن يجمع كل منهم سلاحه ويتقابلوا جميعاً عند رسول الله ﷺ الليلة القادمة.

* * *

خلا رسول الله ﷺ بهذه المجموعة الفدائية وأخذوا يرسمون خطة التخلص من المجرم الغادر، حتى إذا اطمأنوا إلى ما رسموا أخذوا سَمْتهم تحت جِنْح الظلام في اتجاه حصن ابن الأشرف.

ولما بلغوا بقيع الفرقد وقفوا، وَبَقُوا هناك وقتاً أعادوا فيه على رسول الله ﷺ ذكر تفصيلات الخُطَّة حتى يُطَمْئنوه أنهم لم يَنْسَوْا شيئاً مما هم مُقْدِمُون عليه. وأخذ الرسول عليه السلام يدعو لهم، ويشجعهم، ويذكّرهم بأجر المجاهدين في سبيل الله الساهرين على حراسة دينهم وأوطانهم. وبعد أن انتهى من دعائه لهم ربّت على أكتافهم ومسح على رؤوسهم. ثم نظر إليهم برهة في حنان وحُبٍّ ورضا، وقد أطل عليهم القمر، الذي كان قد بزغ حينئذ، من عليائه كأنه يحرسهم ويباركهم، وارتمت ظلالهم

السوداء على الرمال والصخور فأضفت على المنظر رهبة ومهابة. وبعد قليل أَلْقَوْا على الرسول السلام ومضوا لِطِيَّتهم.

* * *

وقف الرسول عليه الصلاة والسلام يرقب رجاله وهم يبتعدون عنه، وانطلق لسانه لربه في دعاء حار أن يكلل جهودهم بالنجاح وأن يُرْجِعهم سالمين. وبعد أن غابوا عن بصره أخذ يتطلع إلى الآفاق في سكون الليل الساجي ويتفكر في حال البشر من أمثال ابن الأشرف، هذا الذي يمدّ يده بالأذى إليه وإلى أصحابه يريد أن يقضي عليهم وعلى دينهم دون أن يسيئوا إليه ولو بكلمة. ترى ما الذي سيخسره أولئك الأشرار لو أنهم سالموا من سالمهم وكفوا أيديهم عمَّن لم يمسّهم بشيء؟.

وكان القمر يرسل من عليائه أشعته الفضية



الواهنة وقد ترامت الصحراء من حول رسول الله ﷺ واستسلمت لوَسنٍ لذيذ. بَيْد أن التفكير في ابن الأشرف ومؤامراته وفي مجموعة الفدائيين الذين انطلقوا منذ قليل للتخلص من هذا الوغد شغل رسول الله ﷺ عن تملّي هذا المنظر الساحر.

وبعد قليل أخذ الرسول ﷺ طريق العودة إلى المدينة وهو منهمك في الضراعة إلى ربه أن يكلأ المجموعة الفدائية برعايته وتوفيقه في الذّهاب والإياب.

* * *

كان أهل المدينة قد أَوَوْا إلى بيوتهم، وأخلد معظمهم إلى النوم، فلم يحس منهم أحد برسول الله وهو عائد مثلما لم يحسُّوا به عندما خرج لتوديع فرقة الفدائيين.

لقد كانت السرية القصوى مطلوبة، وإلا فقد

تفشل المباغتة وتتعرض حياة هؤلاء الأبطال للخطر.

* * *

سار الأبطال الخمسة في طريقهم إلى حصن ابن الأشرف، وخوفاً من أن يكون هناك من يتلصص عليهم من قِبَل عدوّ الله أخذوا يتحدثون عن ضيق العيش في المدينة بعد هجرة محمد إليها، والضَّنْك الذي يُقَاسُونه، والخطإ الذي وقعوا فيه حين وافقوا على قدوم محمد إلى بلادهم وعادَوْا العرب جميعاً من أجله. ومَضَوْا يتحسرون على أيام الرَّخاء الجميلة التي ذهبت، ويُثْنُون على ابن الأشرف وذكائه وبُعد نظره. كل ذلك على نحوٍ لا يشتبه معه أبداً من يسمعهم أنهم يتظاهرون ويمثلون ولا يقولون ما في قلوبهم.

* * *

بلغ الخمسة باب الحصن، فتقدم سلكان بن

سلامة فطرقه فلم يخِفّ لفتحه الحارس، لأنه كان قد انصرف إلى مسكنه. عندئذ رفع سلكان صوته فنادى كعباً، فوثب هذا في عباءته وهو نشوان، لِتَوَهُّمِهِ أنه استطاع أن يُفْسِدَ على محمد بعض أتباعه، وَأَمَلِهِ في أن يجعل من سلكان وأصحابه شِصّاً يصطاد به غيرهم وغيرهم من أصحاب محمد، حتى يجد هذا الغريب الوافد على بلادهم نفسه في النهاية وحيداً، إلاَّ من عصابة المهاجرين البائسين الذين أتى بهم معه. لكن امرأته قالت له:

– فليصعدوا هم إلى هنا ولا تنزل أنت إليهم، فإن الوقت متأخر.

فردَّ في ثقة زائدة:

– وهل تخافين عليَّ؟ إنني كعب بن الأشرف؟ أم تُراكِ نَسِيتِ من هو زوجك؟.

فعادت تقول له محذرة:

ـ ولكنك قد جاهرت بعداوة محمد ودينه، وعلم كل الناس بِذَهابك إلى مكة، والاتصالات الجارية بينك وبين قريش، وتحريضك إياهم عليه وعلى أصحابه، وهؤلاء الناس من رجاله فينبغي ألا تَطْمَئِنَّ إليهم.

فأجابها غير مُلْقٍ بالاً إلى تحذيرها:

ـ إن سلكان أخي في الرَّضاع كما تعرفين، وقد سَمِعْتِهِ بأذنك البارحة وهو يشكو من محمد ومن الضيق الذي أوقعهم فيه. وإني لَعَلَى ثقة أنه وزملاءه ينتظرون الفرصة المناسبة ليجاهروا هم أيضاً بعداوتهم لمحمد ودينه، إنني أعرفهم.

فقالت له وقد خرج من المَخْدَع وأخذ يهبط في السُّلَّم:

ـ لقد حذَّرْتُك والسلام!.

فتناهى إليها صوته من أسفل السُّلَّم:

- إن كعب بن الأشرف ليس بالرجل الجبان، وحتى لو كانوا يريدون شرّاً فإن الشجاع لا يصح أن يتقهقر!.

* * *

رَحَّب ابن الأشرف بالرجال الخمسة، وكان يشعر بسعادة شديدة لمجيئهم، وبخاصة حين رأى السلاح عليهم، ذلك السلاح الذي اتفق معه سلكان الليلة الماضية على أن يَرْهَنُوه عنده. لقد كان يَعْنِي بالنسبة إليه شيئاً واحداً، هو أن أصحاب محمد ابتدأوا يكرهونه وينفضّون عنه، وأنهم لم يجدوا أحداً غيره هو، كعب بن الأشرف، يلجأون إليه لينقذهم من الجوع.

ودار الحديث بينهم حول الرسول ﷺ، فأخذ المسلمون الخمسة يتظاهرون بِذَمِّه وَذَمِّ دينه، ويُبْدُون النَّدَم أن لم يستمعوا لنصيحة كعب حين

قال لهم إن محمداً رجل شؤم، وسوف يجلب عليهم عداوة العرب كلهم، ولن يستطيعوا أن يَصْمُدوا لحربهم. فازداد ابن الأشرف زَهْواً وغُرُوراً، وقال في فخر وعُنْجُهِيَّة:

– على كل حال ما فات قد مات. والمهمّ الآن ماذا ينبغي أن نفعله تجاه هذا الرجل الذي جاء إلى بلادنا وأفسد حياتنا وكرَّه فينا الدنيا جميعاً. ولكن لا بد أن أدبّرْ لكم أوّلاً الطعام الذي تحتاجونه، لأنه لا يصح أن نترك زوجاتكم وأطفالكم المساكين يتلوَّوْن من الجوع.

قال هذا وهو يَفْتِلُ شاربيه ويتظاهر بالنظر إلى بعيد، ولكنه كان يرقبهم بِمُؤْخِرِ عَيْنه وقد بدت عليهم علامات الانكسار والتذلل له والحاجة إلى طعامه، فيحسُّ بالنشوة تملأ كِيَانه.

وكان القمر الآن في أبهى ضيائه، ونسمة رقيقة تهب من جهة الشرق، والنجوم تلمع في

أديم السماء بقوة كأنها في حفل عُرس، فَلَمْ يُحِسَّ ابن الأشرف في غمرة الحديث والانفعال بأنهم قد ابتعدوا عن الحصن. لكنه تنبَّه فجأة فسألهم:

– إلى أين نحن ماضون؟.

فقال له سلكان مُطَمْئِناً:

– إلى شِعْب العجوز حيث نَسْمُر بقية ليلتنا، أَمْ تُراك لا تحب أن تبتعد عن عروسك أبداً؟ إننا لا نلومك! فمن كان له عروس في جمال عروسك فإنه لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار.

فدغدغ هذا غرور ابن الأشرف وازداد اطمئناناً، ثم إن سلكان قد مدَّ يده ولمسَ شَعْر كعب فتضوع عِطْر العُرس منه، وقال له:

– هنيئاً لك ما أنت فيه كل ليلة من سعادة ونعيم! ما هذا العطر الرائع؟.

ثم التفت إلى أصحابه سائلاً:

ـ هـل شممتم عـطراً بـهـذا النـفـاذ وهـذا الجمال؟ تالله إنه عطر يَسْحَرُ قلوب العرائس!.

فأمّن الباقون على كلامه، وأخذوا يـداعبون كعباً ويمدحـون رجولتـه ويؤكدون أنـه مَـطْمَـحُ جميلات العرب، وأن عـروسه لا بـد أن تكون واقعـة إلى رأسها في حُبِّـه، وتنتظره الآن بصبـر نافد.

وأخـذوا يَعْزِفُـون على هذا الـوَتَرِ وقتـاً، ثم يعودون إلى موضوع محمد وما سبَّبه لهم من ضيق العيش وعـداوة العـرب. وتســاءل بعضهم كيف يمكنهم أن يتخلصوا منه بعد أن تورطوا معه كل هذا التورّط، وما السبيل إلى إيقاظ قومهم ممّا هم فيه من ضلال. وذكر أحدهم أسماء بعض أهل المدينة، مؤكداً أن هؤلاء أيضاً على نَفْسِ رأيهم في محمد، ولكنهم يخشَوْن أن يُعْلِنُوا موقفهم منه

حتى يَطْمَئِنُّوا إلى أن عدد الساخطين عليه وعلى دينه قد أصبح كافياً. فردَّ آخَرُ بأنه هو أيضاً يعرف من بين الأوس والخزرج ناساً يُبْغِضُون محمداً، ولكنهم ينتظرون الفرصة السانحة. فقال سلكان:

– البَرَكَةُ في كعبِ الهُمَام! وأنا واثق أنه سيدبر هذا الأمر كله أحسن تدبير. كل ما هنالك أنه عروسٌ جديد، فَلْنَتْرُكْهُ يستمتع بما هو فيه الآن، وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث.

فعاد القوم يهنئون ابن الأشرف ويَغْبِطُونه على ما هو فيه من لذة وبهجة، ومدَّ سلكان يده مرة أخرى إلى رأس كعب وأدخل أصابعه في شعره، ثم وضعها على أنفه صائحاً:

– يا له من عطر لم أشَ مثيلاً له في حياتي!.

قال هذا ليبعث في قلبه الطمأنينة ويَشْغَلَهُ عن أن يَفْطِنَ لما يَنْوُون أن يفعلوه به. ثم أَغَذَّ الخُطا

قليلاً ومعه كعب وأخذا يتحدثان عن مقدار الطعام المُرادِ والرَّهْن وما إلى ذلك، والباقون في أثرهم.

كان الخمسة قد اقتربوا من شِعْب العجوز، وكان سلكان وكعب قد فرغا من حديث الطعام والسلاح، فأبطأا من خَطْوِهما حتى يلحق بهما الآخرون. ثم قال له سلكان:

ـ لقد عوّقناك عن عروسك، فعُذْراً. وهي على أية حال مَرَّةٌ ولن تتكرَّر، فتحمَّلْنا هذه الليلة.

ومدَّ يده للمرة الثالثة إلى رأس كعب كأنه يداعبه ويريد أن يشمّ عطره. ولكنه في هذه المرة أطبق يديه على رأسه صائحاً في إخوانه بصوت حاسم:

ـ عليكم بعدوّ الله! اُقْتُلُوهُ!.

وكانوا قد استلّوا سيوفهم سرّاً وهم يمشون خلف سلكان وابن الأشرف، فانهالوا بها على

الـوَغْـد، ولكنهم لم يُحْكِمُـوا الضـرب لأن ابن الأشرف كان يحاول التخلّص من سلكان ويجذبه هُنَا وهَهُنَا. فجرحوه ولكنهم لم يستطيعوا قتله.

ولمَّا أفاق عـدوّ الله من هَوْل المبـاغتة أخـذ يصيح بصوت كأنه هزيم الرَّعْـد، فهب أصحاب الحصون القريبة فأوقدوا النيران في أعاليها دلالةً على أن هناك خطراً.

وخاف ابن مسلمة أن يتسرب الوقت قبل أن يستـطيع زمـلاؤه المضـطربـون الإجهاز على ابن الأشرف، فمد يده اليسرى إلى سيفه، واستلَّ من غِمْده خِنْجَراً في خِفَّة الفَهْد. وفي لَمْـحِ الْبَصَر كان قد غرسه بين ثَـدْيَي المجرم اللعين. ولمـا رأى رفاقه مـا فعل تَكَـأكَأوا على كعب وكتّفـوه، فشلّت حـركتَهُ، وأخـذ يخور كمـا يخور الثَّـوْر، ويتلوّى في أيديهم من حلاوة الروح، ولكنْ عَبَثاً.

وكانت الحصون قد فُتحت وأخذ الهواء يطيّر

أصوات أهلها هنا وهناك، فتصل إلى جماعة الفدائيين، فجمع ابن مسلمة كل جهده وعزمه وضغط بكلتا يديه على الخنجر في اتجاه رِجْلَيْ كعب حتى شق بطنه إلى نهايتها. عندئذ سقط عدو الله، وهمدت حركته إلاَّ من تَشَنُّجات واهنة، وتلاشى صوته. فقام الخمسة عنه، وضربوه بسيوفهم فمزقوه، ثم انطلقوا يَعْدُون كالريح بين الجبال والنخيل.

* * *

مرَّ سلكان هو ورفاقه في عَدْوهم على ديار بني أمية بن زيد، ثم على ديار بني قريظة، ثم على بُعاث، كل ذلك وهم يلوذون بالنخيل والجبال وظلال الصخور، ويَحْرِصُون على ألا يَصْدُر منهم أي صوت يَلْفِتُ أحداً إليهم، إلى أن وصلوا إلى حَرّة العُرَيْض في أمان. عندئذ جلسوا يستريحون، فوجدوا أنهم أربعة فقط، وأن

الحارث بن أوس غير موجود معهم. فاقترح أحدهم أن يَرْجِعوا أدراجهم ليبحثوا عنه خوفاً من أن يقع في أيدي المطارِدين. ولكن سلكان فضَّلَ أن ينتظروه حيث هم، وطمأنهم بأنه سيصل إليهم سالماً بمشيئة الله. ثم أضاف:

– وهذا أفضل من أن نجذب الانتباه إلينا فنقع نحن في أيدي الأعداء. ثم إننا لا ندري أين هو الآن.

فاستحسن زملاؤه رأيه، وَبَقِيَ الأربعة في أماكنهم. وبعد قليل سمعوا لُهَاثاً خافتاً يقترب منهم، فاشْرَأَبُّوا وهم في مخبئهم وأرهفوا آذانهم، ثم همسوا في نَفَسٍ واحدٍ:

– إنه الحارث! إنه الحارث!.

وبعد لحظات ظهر الحارث فَنَادَوْهُ بصوت خافت، فتحامل على نفسه والدَّمُ ينزف من رأسه حتى وصل إليهم.

وكان الحارث قد أُصيب بِجُرْحٍ في رأسه من سيف أحد زملائه في غمرة اضطرابهم وهم يضربون ابن الأشرف، ونزف في الطريق كثيراً، فكان هذا سبب تعويقه عن رفاقه. فتركوه يستريح قليلاً، ثم نهضوا وحملوه المسافة القليلة الباقية حتى وصلوا إلى المدينة وهم يَلْهَجُون بحمد الله على ما وفَّقهم إليه من قتل عدو الله والدِّين.

* * *

كان النبي يصلي صلاة القيام عندما بلغوا مسجده عليه السلام واقتربوا من حجرة زوجته التي كان يقضي ليلته عندها، فانتظروا حتى سلَّم، ثم أَلْقَوْا عليه التحية، وأخبروه بتفاصيل العملية، فَأَثْنَى عليهم خيراً، ودعا الله لهم. ثم استأذنوا منه ليناموا ويستريحوا مما أصابهم من عناءٍ، فأذِن لهم. أما الحارث بن أوس فقد تَفَل عليه السلام على جُرْحه فزال عنه الوجع في الحال.

وفي الغد كان الخبر قد انتشر في الآفاق ففرح المسلمون بنصر الله فرحاً شديداً. وأما اليهود فقد ملأ الرعب قلوبهم، وأصبح كل منهم إذا مشى وحده أخذ يتلفت حوله، خوفاً على نفسه أن يصيبه ما أصاب ابن الأشرف.

المراجع

١ ـ سيرة ابن هشام، القسم الثاني، ص ٥١ - ٥٨، (ط. القاهرة ١٩٥٥ م).

٢ ـ «المغازي» للواقدي، مجلد ١، ص ١٨٤ - ١٩٣، (ط. مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦ م).

٣ ـ «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، مجلد ٢، ص ٤٨٧ - ٤٩١، (دار سويدان، بيروت).

٤ ـ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، مجلد ٢، ص ١٤٣ - ١٤٤، (دار صادر، دار بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

٥ ـ تاريخ أبي الفداء، مجلد ١، ص ١٣٧، (ط. القسطنطينية ١٢٨٦ هـ).

٦ ـ «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ محمد الخضري، ج ١، ص ١٠٩ ـ ١١٠، (المكتبة التجارية الكبرى، ط ٧، ١٣٧٦ هـ).

٧ ـ «التاريخ الإسلامي ـ السيرة» لمحمود شاكر، مجلد٢، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣، (المكتب الإسلامي).

٨ ـ The Spirit of Islam, Ameer Ali, Chatta & Windus, London, 1978, PP. 73 - 74 .

٩ ـ Muhammad and the Course of Islam, H. M Balyuzi, George Roland, Oxford, 1976, PP. 9, 73 .

١٠ ـ The Life of Muhammad، (وهو ترجمة سيرة رسول الله ﷺ لابن إسحاق) .
A، Guiliaume, Oxford University press
ط ٦ ـ ١٩٨٠ م. PP. 364 - 369

للمؤلف

١ ــ الترجمة من الإنجليزية ـ منهج جديد.
٢ ــ في الشعر الإسلامي والأموي ـ تحليل وتذوق.
٣ ــ في الشعر العباسي ـ تحليل وتذوق.
٤ ــ في الشعر الأندلسي ـ تحليل وتذوق.
٥ ــ في الشعر العربي الحديث ـ تحليل وتذوق.
٦ ــ فصول من النقد القصصي ـ رؤية جديدة.
٧ ــ من أعلام النقد القصصي (بالإنجليزية والعربية).
٨ ــ المستشرقون والقرآن.
٩ ــ مصدر القرآن ـ دراسة في الإعجاز النفسي.
١٠ ــ من الطبري إلى سيد قطب ـ دراسة في مناهج التفسير ومذاهبه.

١١ ـ تفسير سورة المائدة.
١٢ ـ تفسير سورة التوبة.
١٣ ـ محمود طاهر لاشين.
١٤ ـ نقد القصة في مصر.
١٥ ـ NOVEL - CRITICISM IN EGYPT
١٦ ـ المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته.
١٧ ـ معركة الشعـر الجاهلي بين الـرافعي وطه حسين - بحث موضوعي مفصل.
١٨ ـ لغة المتنبي - دراسة تحليلية.
١٩ ـ موقف الكتاب المقدس والقرآن الكريم من العلم.
٢٠ ـ المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام - ترجمة وتعليق ودراسة (تـأليف: لويس ماسينيون).
٢١ ـ دراسات دينية مترجمة من الإنجليزية.
٢٢ ـ الآيات الشيطانية - دراسة فنية ومضمونية.
٢٣ ـ النّزعة النصرانية في قاموس المنجد.

٢٤ ــ سورة الرعد ـ دراسة أسلوبية وأدبية.

٢٥ ــ عشر لآلىء من جواهر الكلام النّبوي.

أدب الأطفال:

٢٦ ــ مقتل كعب بن الأشرف.

٢٧ ــ مقتل ابن أبي الحقيق.

مخطوطات لم تنشر بعد:

٢٨ ــ شعر الأمير عبدالله الفيصل ـ دراسة أسلوبية وأدبية.

٢٩ ــ القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية.

من منشوراتنا

- «المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم»: تأليف محمد مصطفى محمد، مجلد.
- «تأملات تاريخية» (العبر من أحداث الماضي والحاضر): جزءان، راجي نصر الله، غلاف.
- «الثمرات الجياد في فقه الجهاد»: أبو إبراهيم المصري، غلاف.
- «جمع الدرر في أحكام التصوير والصور»: أبو إبراهيم المصري، غلاف.
- «ذروة السنام في الطاعة والنظام»: أبو إبراهيم المصري، غلاف.
- «رسالة إلى زوجة شهيد»: أم إبراهيم المصرية، غلاف.
- «وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وخطر التقليد»: علي خشان، غلاف.
- «تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين»:

محمد أبو الفتح البيانوني، غلاف.

- «هل في الشر خير؟»: الشيخ محمد سعيد الطنطاوي، غلاف.
- «الحتمية والحركية في الإسلام»: الشيخ محمد سعيد المولوي، غلاف.
- «المسلم إنسان إيجابي»: محمد هيثم الخياط، غلاف.
- «الغاية لا تبرر الوسيلة»: محمد هيثم الخياط، غلاف.
- «كرامة الإسلام ورد عادية الطاغين عليه»: محمد أحمد الغمراوي، غلاف.
- «الإمارة والشورى» (من السياسة الشرعية): ابن تيمية، غلاف.
- «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» (مقتبس): سيد قطب، غلاف.
- «شريعة الأحرار لا شريعة الخانعين»: أبو الأعلى المودودي، غلاف.
- «طريق الخلاص» (مقتبس): سيد قطب، غلاف.
- «إلى المتثاقلين عن الجهاد»: سيد قطب، غلاف.
- «مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية»: نازك

الملائكة، غلاف.

- «المجتمع العاري» (بالوثائق والأرقام): من رسائل جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي بالإمارات العربية المتحدة، غلاف.
- «التبشير الصليبي» (الوسائل والأهداف): من رسائل جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي بالإمارات العربية المتحدة.
- «الوصايا الذهبية لشباب الصحوة الإسلامية» (نحو وعي إسلامي): من رسائل جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي بالإمارات العربية المتحدة.
- «منهج الدعوة إلى الله»: أمين أحسن إصلاحي، غلاف.

* * * * *